الرفض وامتداد الحس الثوري

في مجموعة " العودة إلى الينابيع " لمحمد مرتاض

أ.د / محمد زمري (جامعة تلمسان)

zemrimed@gmail.com

الملخص:

تعدّ مجموعة (العودة إلى الينابيع) للكاتب محمد مرتاض إحدى الأعمال الأدبية الهامة في ساحة الكتابة القصصية الجزائرية المعاصرة، فقد بلغت ما يزيد على العشرين قصة قصيرة، تناول فيها القاص قضايا الثورة بكلّ أبعادها الفكرية والاجتماعية والثقافية، إذ لم يقتصر التعبير الفني في تلك القصص على وضعية واحدة، بل على وضعيات عديدة، وحالات مختلفة، تميّز معظمها برفض كل ما هو مستعمِر، كما أنّ قصصا أخرى أوحت بالامتداد الحسّي للثورة، ذلك أنّها تناولت فترة ما بعد الاستقلال لكنّ فحواها ظلّ مرتبطا بالرفض؛ مثل قضية الهجرة إلى أوربا بعامة وفرنسا بخاصة، وقضية التبعية الثقافية المواصلة، وفي مقابل ذلك كان الإلحاح قويا على الدعوة إلى المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية، والتمسك بالانتماء الحضاري، ورفض كل مؤثر سلبي يسلب تلك الشخصية.

الكلمات المفتاحية: الثورة – الرفض – الامتداد الحسي – الهجرة – الانتماء الحضاري

Abstract

The Collection written by Mohammed MORTAD << el 'awda ila el yanabih >> is one of the valuable literary works in the Algerian story writing arena. The writer listed the issues of revolution with all its intellectual, social and cultural dimentions in more than twenty short story.

The writer has not limited himself with one plot and a specific artistic approch, he rather used different cases and positions that reveal the refusal of colonialism.

It is worthy to mention that other stories reflect the sensory extension of

revolution. The writer tackled sonne pre-colonial period themes of rejection such as immigration to Europe and France, in particular, or cultural continuous subordination. One the other hand th writer calls to preserve the national identity elements and stick to civilizational harmony rejecting all negative indicators that can take away that identity.

Key words Revolution- refusal- extension- immigration- cultural- affiliation.

إنّ القراءة المتأنية في مجموعة (العودة إلى الينابيع لمحمد مرتاض) لتشي بوجود توزيع زمني ومكاني وموضوعاتي للقصص المبثوثة في ثنايا الصفحات، ذلك أنّ القضايا التي شغلت بال الكاتب في مجموعته هذه ارتبطت ارتباطا وثيقا بمبدإ الانتماء وتحقيق الوجود؛ فالشخصيات القصصية جسّدت مواقف متنوّعة، بعضها متجانس، وبعضها الآخر متناظر ومتصارع إلى حدّ التناحر.

ويبدو أن هذا الصراع كان السّمة المميّزة لأحداث القصص، إذ اندرج في شكل ثنائيات ضدّية، تمثّلت أُحاديتها الأولى في موقف التسلّط، وتمثّلت الأخرى في موقف المجابهة وصدّ الهيمنة. ومردّ ذلك إلى كون الكاتب كغيره من الكتاب الواقعيين الذين (كان مفهوم الالتزام عند معظمهم الأمانة والصدق في السرد، أو الدفاع الخطابي المباشر عن الثورة وأبطالها، واعتمدوا في قصصهم على حصانة الموضوع الأكبر وهو الثورة المسلّحة أوّلا وآخرا، فتكرّرت الموضوعات، وتشابهت الشخصيات، وتوحّدت المواقف، ولم تختلف العقد القصصية وحلولها ما دامت تدور حول الاعتقال والسجن والتعذيب والاختيار بين المقاومة ومغريات الحياة المتعدّدة؛ فالبطل لا شكّ سيختار المقاومة والانتقال إلى أعالي الجبال.)[1]

والسؤال الذي سبقى واردا، هل الحس الثوري عند محمد مرتاض ظلّ حبيس المقاومة المسلحة إبان الثورة أو طرأت عليه تغييرات وتعدّته إلى أطر أخر؟

يظهر أن خريطة موضوع الرفض والحس الثوري في (العودة إلى الينابيع) انطوت على مضامين عديدة؛ نحو: رفض الهيمنة الاستعمارية ومحاولة استيلاب الشخصية، وتبني الموقف المناوئ للهجرة إلى فرنسا، والدعوة إلى

الارتباط بالأرض ، والموازنة بين أخلاقيات المدينة وأخلاقيات البادية، ودور المرأة في صرخة الرفض والنضال الاجتماعي.

فهدة الموضوعات تشي بالرجوع إلى الماضي واستحضار صوره وتذكر التفاصيل المؤثرة في نفسية المرسل والمتلّقي اللذين ينتميان إلى فئة متقاربة وجدانيا، ذلك أن (الحضور الذي يشكل قوام تمثيل الماضي يبدو أنّه حضور صورة؛ فنحن لا نقول بلا تمييز بأنّنا نتمثّل حدثا ماضيا أو نتصوره، أي عندنا صورة؛ وهذه الصورة يمكن أن تكون شبه بصرية أو سمعية)[2]

العتبات النصية ودلالة الرفض والثورة:

لقد تنبّه النقاد والدارسون إلى ما يوازي المتن النصّي من الداخل وما يحيط به من الخارج، ووضعوا له فروعا، ونوّعوا في تسمياتها، فكان منها (العنوان) الذي يعدّ من أهمّ عناصر المتعاليات النصية، لأنّ محموله يتّسم بالعمق، وبتعدّد الاحتمالات الدلالية، وبجمال الإيقاع؛ فهو (شكل من أشكال الالتزام الذي يجعل الكاتب يقدّم إطارا أيديولوجيا يوجّه نشاط فكّ التشفير لدى القارئ، ويبدي في كلّ وقت ردّ فعل القراءة.)[3].

ويظهر أنّ سبك العنوان يشدّ انتباه الكاتب، ويشحذ قريحته، ويقلقه ويأسره، ويكون مدعاة إلى الوضع والشطب والمعاودة إلى أن يتمكّن منه، ويبثّ فيه الإحساس بالارتياح والسكينة، إضافة إلى ذلك فملفوظه اللغوي المكثّف ذو الأبعاد الدلالية يجعله داخلا في معمار النص وهندسته ، لأنّه (عندما يتمّ إنتاج نص ما لا لكي يقرأه قارئ بعينه، بل لكي تتداوله مجموعة كبيرة من القرّاء؛ فإنّ المؤلّف يدرك أنّ هذا النص لن يؤول وفق رغباته هو، بل وفق استراتيجية معقّدة من التفاعلات التي تستوعب داخلها القرّاء بمؤهلاتهم اللسانية.)[4]

فلقد توشّحت مجموعة محمد مرتاض القصصية بعناوين مفردة ومركّبة، ومتوافقة ومتناظرة، وجاءت مرتّبة وفق الشكل الآتي:

العودة إلى الينابيع . سمام . هموم متشعّبة . المفاجأة . الذهب الضائع . الورم . غابة الضباع . الحزن الباسم . زَفاف في البادية . انزلاق على شفا الجُرف . الأمل المبرعم . الندم يتفجّر . ضياع . التلاشي في المجهول . السقوط في الوحل . الغول . أغلى هدية . الوريقة الملعونة . خريطة أخرى للعالم العربي . كبرياء . حصاد الشوك . الرهان الخاسر.

فهذه العناوين تحمل إحالات إشارية، ودلالات أخلاقية، وتوجّهات أيديولوجية؛ إذ إنّ المتأمّل فيها يدرك أنّها مركّبة تركيبا خماسيا، ورباعيا، وثلاثيا، وثنائيا، وأحاديا مع إغفال المحذوفات المقدّرة. .كلّ ذلك يجعل القارئ يفكّر في ارتباط سياق العنوان بسياق النص المباشر، ويتفحّص الدلالة المجازية والرمزية، ويبحث عن أجوبة توضّح سبب ترتيب هذه العناوين، ويكشف علاقة عنوان القصة الأولى (العودة إلى الينابيع) بعنوان المجموعة القصصية؛ أتكون أهمية المضمون الثوري للقصة الأولى مسوّغا موضوعيا ليكون عنوان المجموعة بكاملها أم أنّ إيقاع العنوان ومحموله الدلالي يفرض موقفا معيّنا يتبنّاه الكاتب؟

يتبدّى جليا أنّ هنالك عناوين ثلاثية التركيب يتوسّطها حرف جر الدال على الربط المكان أو الاحتواء، تتضمن إشارات الرفض، فعنوان القصة الأولى " العودة إلى الينابيع " يحيل القارئ إلى مجموعة من الدلالات منها: صيغة الجمع الدالة على أهمية الأصالة وقيمتها المرجعية، وعلى الدعوة إلى مناوءة قيم المدينة الزائفة.

ويزداد عمق هذا العنوان قيمة حينما صدّر الكاتب مجموعته به، وهنا تحولت دلالة العنوان من إشارة ضيّقة إلى إشارات واسعة تستوعب كل عنوان القصص الموجودة في تلك المجموعة، لتتأكّد مواقف الرفض لكلّ مظاهر الاحتلال والهيمنة والحياة الزائفة والقيم غير الأخلاقية. والعنوانان الآخران " زفاف في البادية " و " التلاشي في المجهول " فلهما دلالة محلّية وقيْمية وحالية، فيهما ينشدان الارتباط بالأرض والعائلة ورفض الانسداد والسلبية.

ويتضمّن التركيبان الرباعي والخماسي يتوسّطهما أيضا حرف جر " انزلاق على شفا الجرف " و " خريطة أخرى للعالم العربي " ولهما صورة الامتداد المكاني أفقيا وعموديا، ويتناولان المدينة ومآسيها وكذلك عدم قبول المواقف السلبية وتقهقر أصحابها.

واللّافت للانتباه أنّ العناوين الثنائية التركيب " هموم متشعّبة " و " الذهب الضائع " و " غابة الضباع " و " الحزن الباسم " و " والندم يتفجّر " و " أغلى هدية " و " الوريقة الملعونة " و " حصاد الشوك " و " الرهان الخاسر ". تسعى إلى تشخيص الذات الرافضة للهجرة، وللاستعمار المدمّر، والانحراف الاجتماعي، والممارسات الصهيونية، وسلبيات الانحلال. وتنشد التضحية وتجاوز المزالق، وتطمح إلى تحقيق الوحدة.

وأمّا العناوين الأحادية " سِمام " و " المفاجأة " و " الورم " و " ضياع " و " الغول " و " كبرياء "فهي تسمو إلى المواقف الوطنية والإقليمية والقومية، إذ تدلّ صيغها على الصراع والتناحر، ومقاومة التسلّط، ورفض الاستسلام والاغتراب والتفكّك، وتحدّي المجهول، والسعي نحو تحقيق الوجود.

الحس الثوري وثنائية المستعمِر والمستعمَر

إنّ الاستعمار ظاهرة استبدادية تقوم على العنف المادي، والإقصاء، والهيمنة الثقافية. وتنصّ الدراسات عن الكولونيالية أنّ الاستعمار الفرنسي كان شرسا ومدمّرا للمجتمع الجزائري من حيث وجوده الإنساني وموروثه الثقافي والحضاري، باذلا كل جهده لتحويله إلى شخصية مقهورة ذات قابلية للخضوع، لكنّ هذه القابلية تلاشت حين قام الشعب وحمل السلاح وكافح بكلّ الوسائل حتى نال الاستقلال.

وليس غريبا أن يكون كلّ ذلك حافزا قويا للأدباء، الذين راحوا يمجدّون البطولات، ويخلدون الشهداء، ويجسدون الوقائع والأحداث في شتى مجالات الإبداع؛ ومنها الأنماط الأدبية وأشكالها الشعرية والنثرية. فكانت الصحافة الوطنية (تعالج شؤون الجزائريين، وتدافع عن حقوقهم، وتعبّر عن مطالبهم، فكانت منبر الكاتب والشاعر والمعلّق السياسي والمصلح الديني والاجتماعي.)[5]

وظلّت الكتابة متواصلة بعد الاستقلال عن الثورة، واستحضار أحداثها في قوالب عديدة، ومنها القصة القصيرة التي كانت مجالا لكتابات محمد مرتاض، الذي وشّح مجموعته بقصص تتمحور حول الحس الثوري وامتداده، ولاسيما في قصّتي " المفاجأة ـ الواقعة في الرتبة الرابعة ـ و " الرهان الخاسر " الواقعة في الرتبة الثانية والعشرين من المجموعة؛ فمضمونهما واحد وهو تمجيد بطولات المجاهدين، لكن التأمل فيهما يوحي بوجود تطابق في معظم الأحداث وتعاقبها، وأمكنتها، وأزمنتها، وشخصياتها.

فعلى الرغم من وجود تفصيلات جزئية تميّز هذه من تلك فإنّ البناء الهرمي لتسلسل الأحداث يتماثل بدءا من رجوع المجاهدين عبر الجبل، وملاحقة المستعمِر لهم، وإصدار أوامر القائدين لعناصرهما بالاستعداد، ثمّ المواجهة، وانتصار المجاهدين وعودتهم إلى المغارة مركز عملياتهم. قد يردّ هذا التماثل إلى أنّ أحداث القصتين تتواصل وتتابع تتابعا بنائيا غير تراكمي، لتسويغ تأثير هذه الواقعة الحربية في ذهن الكاتب، وتفاعلت في داخله، وعمّقت حسه الرافض للمستعمر، وكان منساقا إلى تشخيصها في ثوب أدبي يصطبغ بصبغة جمالية، ويقوم على

السرد الحدثي والوصف المشهدي. ونلمح أيضا توافق القصتين في عدم الإكثار من إيراد الشخصيات، وعدم ذكر أسمائها مع التركيز على دور القائدين، وفي مقابل ذلك كان التركيز على الأمكنة لتأكيد الانتماء الثوري وإقناع القارئ بالوقائع، ومحاولة إيجاد المشاركة الوجدانية.

وكانت إدانة الاستعمار نابعة من موقفه الرافض للممارسات الاستعمارية؛ فاختيار " الورم " عنوانا لإحدى قصصه، ليرمز إلى الآثار السلبية ولكلّ ما يمتّ بصلة إلى الأفعال الشنيعة، ويتجلّى ذلك في الحوار الدائر بين شخصيتين: (. من كان السبب في هذه المآسي كلّها؟ ... من زرع بذور الشر التي تطاولت سيقانها واستحصدت، فما أجدتْ فيها الحاصدات ولا المناجل فيما بعد. . أجل.. أجل.. كان الاستعمار..)[6].

ثنائية المدينة والبادية ودلالات الرفض

تتمثّل الواجهة الأخرى لموضوعنا في ثنائية المدينة والبادية المجسّدة للعلاقة الضدية بينهما، فالسارد رأى في المدينة صورة أحادية الجانب المقصورة على ارتباطها بالحضارة الغربية وإفرازاتها الفجّة المصطنعة، التي لا تمتّ بصلة إلى الأصالة والقيم الثابتة.

فهذه القضية أخذت مساحة هامة في المجموعة القصصية، وبلغت أربع قصص: " العودة إلى الينابيع " و " الذهب الضائع " و " أغلى هدية " و " زَفاف في البادية "ويظهر جليا أنّ الكاتب أولى عناية بالقصة الأولى لتتصدّر المجموعة، وتكون دالّة على رفض مخلّفات الاستعمار المخبوءة في المدينة بمظاهرها الوهمية وأفكارها المستوردة، والدعوة إلى البديل الثابت الذي ينضوي على الانتماء الحقيقي، والارتباط بالأرض، والتمسّك بالأصالة واستمرارية الحس الثوري؛ فالموقف الواصل بين هذه القصص هو عدم الانقياد للمدينة والإقبال على البادية، وعمد الكاتب في ذلك إلى حدث مركزي تمحور حول إقامة علاقة زوجية وبناء أسرة بين رجل بدوي وفتاة مدينية جمعهما العمل في المستشفى، إلاّ أنّ عدم التجانس والاختلاف في الطبائع، أدّيا إلى حدوث شرخ في العلاقة التي كان مآلاها الانفصال والانقطاع، وهنا أبدى السارد تحيّزه ومال إلى تغليب كفة البدوي، فاستخدم وسيطا حدثيا تمثّل في إيجاد البديل وهو الزواج من امرأة بدوية التي حقّقت الانسجام والتوافق، فقرر الانتقال إلى القرية والعمل فيها، والانقطاع عن المدينة، وكان ذلك حلاّ للعقدة، وإنهاء للصراع، وانتصارا للبادية. يقول: (اتّجهتُ مع مصطفى إلى منزله.. استقبلتكما الأمّ بترحاب.. جلست متفيّئا في غرفة تبدو ضيّقة لكنها مريحة... حُضِّر الطعام... قامت بتقديمه فاطمة وهي ترتدي بُرْدة محتشمة، وتغطّي ليلها اللاهث خلفها بخمار غطّى عن لونه، وقلّم من طوله !

كانت عادية جدا، لم تحاول أن تموّه ملامح وجهها، ولم تتصنّع في إظهار تقاسيم جسمها. قضيت ليلتك الموالية وقد تقيّأتَ فاتحة بكلّ قشورها وآثامها، وأقبلتَ على فاطمة بلطافتها وبساطتها. خشيت أن تفلت من بين يديك... تراقصت حناياها وهي تتلقّى خطبتها منك...تبدّلت أيامك وعاد الشر إلى لياليك... أقمت وليمة ودّعت معها البؤس، ودفنت مع دخولك بفاطمة تهميش شخصيتك، وأحسست في صدق بقوامتك لا بتسلطّك)[7].

والمثير للانتباه أنّ قصة " العودة إلى الينابيع " ترتبط ارتباطا حدثيا بالقصة التاسعة " زفاف في البادية " وكأنّ القاص ما زال داعما الموقف ذاته، فكانت هذه القصة استمرارا لذلك؛ فوصف مشاهد عديدة لمظاهر الزفاف في القرية حيث الترابط والتجانس، وتلقائية فتيانها وتكامل معلم المدرسة مع الفلاحين، الذين استنكروا انقطاع بعض فتيانها أحمد والمنور ومصطفى عنها وانتقالهم إلى المدينة التي أسرتهم وسلبت انتماءهم، وأدّت بهم إلى التفريط في الأرض التي كانت مصدر أصالتهم.

ولعلّ هذا الموقف من الانهزامية أدّى بالقاص إلى مواصلة النسج على المنوال ذاته؛ فعنون القصة الخامسة بـ" الذهب الضائع " لتأكيد رفض الهجرة إلى المدينة والتفريط في الكنز الذي هو الأرض وقيم الأصالة. مثل قوله: (كان صاحبك مسترسلا في سرد حكايات وطرائف؛ ورذاذ خطابه يصلك بين الآن والآخر... حدّثك عن الفلاحين الذين تقاعسوا عن الحصاد حتى سقط معظم الحَبّ على الأرض... وحدّثك عن الحقل المجاور الذي يضلّ فيه المرء ولو كان ذا قامة مديدة؛ فلمّا جاءته الحاصدة لم يجن منه إلاّ التبن وما كادت، بسبب مكوثه طويلا مهملا... حدّثك... وحدّثك ... أترْعت جرابك بحكايات، وأضفتْ إليك أشياء وأشياء، ثمّ ودّعته مواصلا سيرك، سارقا النظر في مرآتك العاكسة؛ علّك تشاهد الحاصدة والحصّادين دون جدوى، فرحت تناجي نفسك: ليست الأزمة في بلادنا أزمة اقتصاديا بقدر ما هي أزمة ضمير، وأزمة ثقافة، وأزمة وعي.. وأزمة عدم التّسامي إلى فهم المعنى الحقيقي للوجود ورسالة كلّ فرد على حدة؛ فالفلاح لا يكون له شرف التلقيب بهذه المهنة إلا بالجد والمثابرة، والعمل الدؤوب الكدود، ثمة ختمت مناجاتك بأن الذي يطمح إلى الصناعة والإقبال على اقتناء أحدث ما في أوروبا، وهو لا يملك رطل دقيق في بيته من نتاج أرضه.)[8]

آفاق العودة ورفض الهجرة

لاشكّ أنّ صورة المستعمِر لا تندثر من مخيّلة الكتّاب سواء أكانوا ممن عانوا الممارسات الاستعمارية أم ممن تلقّوها ثقافة، فلقد تناولت هذه الظاهرة دراساتٌ تاريخية وجغرافية ووثّقتها مكتبات ومراكز الأرشيف، وحلّلتها بحوث اجتماعية ونفسية وحضارية، وعبّرت عنها فنون زمانية ومكانية، وتناقلت أحداثها ومآسيها أشعار وقصص وروايات.

وطبيعي أن يطرقوا الموضوعات التي متّت بصلة إلى الهجرة إلى فرنسا أوان الاستعمار وبعده؛ لكونها العامل الأساس مقابلة وجهين متضادين، أوّلهما الامتداد الاستعماري المتمثّل في انغماس فئه من المهاجرين في الحضارة الغربية، وتخلّيها عن مقوماتها الحضارية، وعن انتمائها الوطني. والآخر امتداد الموقف الثوري الرافض ذلك الانغماس والسعي إلى التمسك بالأرض والشخصية الوطنية والعمق الحضاري.

ونشير ههنا إلى أنّ القاص أحسن اختيار عناوين قصصه التي تجسد تلك المواقف؛ فمنها " التلاشي في المجهول " التي تناولت موت المغتربين في مناجم فرنسا، وكذلك زواج بعضهم بفرنسيات وتكوين عائلة هجينة، ومن ثمّ يحدث الانسياق ويُهمل الزوج أو يُطرد أو يَحسّ بالضياع، ففي مشهد من المشاهد نقرأ حوارا دار بين الزوج المغترب الذي احتج على ابنه لكونه تزوّج دون استشارته وأخذِ موافقته، فقال محتجّا: . ما هذا التصرف؟ ولدي الوحيد يتزوج دون موافقتي؟ قهقهت زوجه عاليا في نشوة المنتصرة وقالت: . هناك في بلادكم الزّريّة، يا ناصية التخلّف، لا بدّ من موافقة الأب ومباركته. أمّا هنا " بلد التحضّر " فالولد والبنت يقترنان ببعضهما من غير إشكال... أو نسيت؟ حين تزوجتك، فهل استشرت أبي في الزواج منك؟ لم تريد أن تطبّق تقليدك على ولدنا؟ ... فارقها من هذه اللحظة ، وذهب هائما على وجهه تخنقه الأدخنة، ويبتلعه المصير المجهول.)[9].

وفي مقابل ذلك دوّن الكاتب قصتين بيّن فيهما الموقف المضاد الرافض للهجرة ومآسيها، فكان عنوان إحداهما " سِمام " إذ أكّد ذلك الموقف محاولا إبراز الأثر السلبي العميق للهجرة، كما أنّه عنون القصة الأخرى بـ " الأمل المبرعم " ليمجّد الانتماء ويدعو إلى التخلّي عن فكره الانسياق والنزوع إلى بلد المستعمر، وتجلّى ذلك في عودة الشخصية الرافضة من أرض الهجرة إلى أرض الوطن والوطن اللذين يرمزان إلى الأصالة والدين والتاريخ والثقافة العربية الإسلامية؛ فهذا " عمر " الذي انتقل إلى جامعة السوربون، ونهل من معارفها، واندمج في حياتها اللاّهية، وطلب الزواج من إحدى فتياتها، التي اشترطت عليه تلبية رغباتها الواقعة في ترك دينه واعتناق دينها، وشرب الخمر، والانصياع لمتطلبات الحياة الفرنسية، لكنّه استفاق من غفلته، واستيقظ الوعي في ذهنه، وامتلأ قلبه عزيمة، فقرّر رفض تلك الشروط والرجوع إلى الوطن في نهاية أحداث القصة، قال: (أفاق زوالا من سكرته

العميقة، وشرع يتملّى نفسه ويتساءل << هل هو عمر بن عبد الصمد؟ ... ماذا قال أمس؟... دخل في الشرك... انحاز إلى فرقة الهوى والضلال ...بدأ يوبّخ نفسه: " كنت مخبولا حينما رضخت للشيطان المارد، وبدّلت دين الإلحاد بديني، وجنسيتي التي صُبغت بالدّم و..." تجلّت له غلطته العظمى واستبان له خطؤه الأكبر، ورأى أنّه لن يصلح ذلك إلاّ بالعودة إلى وطنه لينجو من هذا الجوّ الموبوء الجارف الذي قد يسحبه على عنقه، ويجرّه مع الخشاش إن عاجلا أو آجلا)[10]

اتّساع جغرافية الحس الثوري

لم يقف القاص عند حدود الثورة الجزائرية ومحمولها التاريخي، بل وجد ضرورة ملحّة لتوسيع الحس الثوري وعدم إبقائه في دائرته الضيّقة المحصورة في رفض الاستيطان الاستعماري، وهجرة الأرض، والارتباط ثقافيا بالفكر الأجنبي والانقياد له، وإخراجه إلى فضاء أرحب وأوسع، ليشمل البعدين العربي والإفريقي، إذ ارتبطت في بعض قصصه الثورة الجزائرية بالثورة الفلسطينية، وامتدت في بعضها الآخر إلى حركات التحرر الإفريقية؛ ففي قصة " هموم متشعّبة " تجلّى ذلك الامتداد في التوثيق الأدبي للبطولات والتضحيات التي يقدمها ثوار فلسطين، كما قدّمها ثوار الجزائر، وأصبحتا رمزا للثورة العربية.

ويتأكد هذا البعد الرمزي في قصة " الحزن الباسم " ذلك أنّ بطلي القصة " عايدة " و " وديع " الفلسطينيْن اللذين كانا يدرسان في الجامعة الجزائرية قرّر كلّ منهما ترك مقعد الدراسة والالتحاق بالعمل الفدائي في فلسطين؛ ففي حوار دار بينهما قالت: (. سأكون أول من يهنّئك، ولكن أرجو ألاّ تغيّري اسمكِ إلى اسم مستعار كالفنانات، حتى لا نضّل عن المعرفة الحقيقية ونتيه عن التسمية الأصلية. [قالت] وهل تخالني جبانة حتّى أموّه اسمي، قلت لك أريد أن يتحدّث عنّي الزمان، فكيف سيحصل ذلك إنْ غُيِّبَ اسمي....كان وديع زميلها يحاول فقد أن يثيرها ويؤجج حماسها... وما أن أوشكت السنة الجامعية على الانقضاء حتى تطايرت الأنباء أنّه في قلب فلسطين المحتلّة يحارب العدو الغاشم ويحطّم أساطيره)[11].كما أن الارتباط بين الثورتين الجزائرية والفلسطينية قوي واشتدّ إلى حدّ التلاحم لجأ السارد إلى تجسيد ذلك في جعل كلمة السر بين الفدائيين الفلسطينيين ترديد كلمتي الجزائر وفلسطين، (وما إن وصلت إلى الجهة الشمالية حتّى ألْفَتْ شبحا فقال لها: " أنا فلسطين " فأجابت بصوت خافت لا يكاد يُسمع: " وأنا الجزائر ")[12]

ويظهر أن اهتمام القاص بالثورة الفلسطينية جعله يكثّف الأحداث، وينوّع الشخصيات والأمكنة، ويختصر الأزمنة؛ ليصل إلى تدبيج عنوان آخر لقصة ثالثة تحمل عمق دلالة رفض الواقع العربي وانهزاميته، والسعي إلى البحث عن صورة بديلة محاطة بنماء الحسي الثوري، فجاء ذلك العنوان على الشكل الآتي: " خريطة أخرى للعالم العربي[13] "

أسماء الشخصيات والأمكنة ودلالات الثورة

يرتكز السرد القصصي على مجموعة من المكوّنات البنائية للنص التي لا تقبل الانفصال، بل تتكامل، ويعاضد بعضها بعضا، وكان من بينها في قصص هذه المجموعة الشخصيات والأمكنة، إذ اقتضى البعد الثوري إعطاء مكانة للمرأة لإبراز دورها في النضال والتضحية.

لقد اختار الكاتب في سرده القصصي أسماء دالة دلالة ضمنية أو صريحة على المضمون الثوري وعلى أصالة الانتماء، فمثلا اسم " عايدة " يحيل القارئ إلى فهم إشارة رفض الهجرة والإصرار على العودة إلى أرض الوطن لمقاومة المستعمر الصهيوني، كما أن اسمي " موشي " و " إيفيت " يمثلان الظلم والاستبداد. كما أن البعد الإفريقي ألزم الكاتب اختيار اسماء مناسبة وموافقة للحدث مثل " حبيبتاي " " الجدة عليون ".

إن احتفاء الكاتب بدور المرأة وشهامتها جعله يختار عنوان " كبرياء " لإحدى قصصه، واللافت للانتباه فيها أنّها تجسّد الدور البطولي للمرأة أوان الثورة والاعتزاز بكرامتها بعد الاستقلال، وليس هذا فحسب بل إن هذه القصة هي نواة المجموعة القصصية لكونها تصوّر قمّة الحس الثوري، وتتقاطع مع نص روائي آخر " ثمن الحرية " للكاتب نفسه، ويمكن للناظر في أحداثها أن يجعلها صورة مصغّرة عن تلك الرواية، ولاسيما إذا علمنا أنّ أسماء بعينها تتكرّر في النصين . قصة كبرياء ورواية ثمن الحرية . مثل شخصية " شمس الدين " وشخصية " يامنة " فكان لهما دور بطولي في الرفض ومقاومة الاستعمار.

كما أنّ الأمكنة تتكرّر في النصين مثل " وادي عجرود " الذي استعمله الكاتب ليكون رمزا للانتماء والثورة، فهو لم يستخدم التسمية الفرنسية بورساي (PORTSAY)[14] الذي هو أحد أسماء المستعمر الفرنسي.

وحقيق بنا أن نشير إلى أنّ الكاتب لم يجعل المدينة مسرح أحداث قصصها، بل ركز على أمكنة في البادية والقرية لتكون مجال مضامينه الثورية، مثل " جبل أجرود " و" بئر أربّوز " ومغارات الجبال، وبيوت الطين، والمحتشدات في المواقع النائية، وكل ذلك ليؤكّد الرفض والانتماء.

الإحالات:

[1] الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، د: نور سلمان، دار العلم للملايين بيروت /1986/ص: 475

[2] الذاكرة التاريخ النسيان/ بول ريكور/تر: جورج زيناتي/ دار الكتاب الجديد المتحدة ليبيا/ ط1/2009 ص: 33

[3] ALGERIE perdue Analyse de titres écrits de français sur l'Algérie – Valérie CABRIDENS – Persée- n 37/1984. P176.

[4] التأويل بين السيميائيات والتفكيكية/ أمبرتو إيكو / تر: سعيد بنكراد / المركز الثقافي العربي بيروت/ ط2/2004 ص85

[5] الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، د. نور سلمان، ص: 166

[6] العودة إلى الينابيع، محمد مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر. الجزائر/2014،ص: 57

[7] المصدر نفسه، ص: 13

[8] المصدر نفسه ، ص: 52

[9] المصدر نفسه ، ص: 140

[10] المصدر نفسه ، ص: 24

[11] المصدر نفسه ، ص: 73

[12] المصدر نفسه ، ص: 75 – 76

[13] المصدر نفسه ، ص: 181

[14] اسم ضابط بحري فرنسي أشرف على الميناء وجلب إليه المعمرين الأوربيين.أوان الاستعمار.